البداوة الجهادية والموت: أوليفيه روا وإعادة النظر في متخيل الجهاديين الأوروبيين

29 - سبتمبر - 2017

كان حقل الدراسات والأبحاث وحتى التقارير الصحافية الرصينة حول الجهاديين قد شهد طفرة كبيرة، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، والاحتلال الأمريكي للعراق. ولاحقاً مع انفجار الجهادية الجديدة بعيد الانتفاضة في سوريا، الأمر الذي أتاح للقارئ العربي في ظل وفرة وسائل التواصل الاجتماعي الاطلاع والتعرّف على أبحاث وترجمات وتقارير جديدة، لباحثين وأكاديميين وصحافيين وخبراء، لا يسع المجال لذكرهم جميعاً، ولكن يمكن الإشارة هنا إلى جهود بعضهم من أمثال توماس هيغهامر، فرهارد خسرو، سكوت أتران، فرانسوا بورغا، فواز جرجس، حسن أبو هنية، محمد أبو رمان، وائل عصام، إضافة إلى جهود مراكز بحثية مثل مركز مسبار، وعشرات التقارير الأسبوعية والتجارب الشخصية التي باتت تقدم معلومات وفيرة عن الجهاديين الجدد وأعمالهم وحيواتهم والبلدان التي ولدوا فيها، وكيف يعيشون في مدن الخلافة الإسلامية (دون أن يخلو الأمر في أغلب الأحيان من مبالغات عديدة).

هذا الأمر ساهم في نمو كبير لمكتبة القارئ العربي حول الجهاديين والحركات الإسلامية عموماً، في حين يمكن القول إن هذه المكتبة قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر اقتصرت على بعض كتابات المصريين في دراسة الحركات الإسلامية القتالية المحلية، أو على كتب أوليفيه روا «فشل الإسلام السياسي»، و«عولمة الإسلام» أو على كتابات خصمه اللدود جيل كيبل، التي حظيت باهتمام كبير، خاصة كتبه حول «الفرعون والنبي»، «يوم الله»، «المثقف والمناضل في الإسلام المعاصر»، التي صدرت جميعاً قبيل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وقد أخذ هذا التطور يعني أنه لم يعد هناك من يمتلك «مفتاح الكهف السري» على حد تعبير الباحث البلجيكي توماس بيريه (متخصص في دراسات الإسلام داخل سوريا)، الذي يشير في حوار نُشِرت ترجمته مؤخراً للعربية على موقع معهد العالم للدراسات تحت عنوان «النزاع وسوريا، الثينك تانك، الأكاديمية» إلى أنه بعد عام 2011 ظهر للعديد من الأكاديميين، أنه ما عاد بإمكانهم تقديم معلومات أكثر أو أوسع مما يقدمه خبراء الثينك تانك، الذين تطورت أدواتهم كثيراً في السنوات الماضية، أو حتى مما تقدِّمه بعض التقارير الصحافية. هذا التطور البحثي، لا يعني وفقاً لبيريه، أن الأكاديمي لم يعد له دور يذكر، مقابل دور خبراء الثينك تانك أو خبراء ذاتيي التعليم (وهو يثني على ما ينتجونه من معرفة جديدة) بل بات دوره يكمن في تقديم أوصاف تحليلية أوسع، تساعد القارئ على فهم التطورات على المدى الطويل. ولعل التوصيف الأخير لدور الأكاديمي الذي يشير إليه بيريه، هو ما يمكن ملاحظته في كتب أوليفيه روا، وبشكل أقل في كتب كيبل الذي يبدو رافضاً فكرة فقدانه جزئياً لاحتكار اكتشاف مغارة الجهاديين، عبر تحوله إلى نجم تلفزيوني، ومن خلال السرعة في إصدار كتب مناسبات تحفظ له لعب دور الكاهن والعارف بالأحداث، التي شهدتها أو ستشهدها فرنسا خلال الفترة المقبلة، كما هو الحال في كتابه «الهوة» الذي صدر بعيد أحداث «شارلي إيبدو»، والذي حاول من خلاله تفسير ظاهرة الجيل الجديد من الجهاديين في فرنسا، من خلال متلازمة

«كتابات أبو مصعب السوري» حول المقاومة الإسلامية العالمية؛ على الرغم من أن بعض الباحثين قد شكّكوا بهذه السردية؛ إذ تبين للأنثربولوجي العراقي هشام داود ـ باحث في المركز الوطني الفرنسي للأبحاث ـ من خلال عمله على موضوع مكتبات ومراجع «داعش» في المناطق العراقية، التي سيطر عليها الأكراد، أنه لا وجود يُذكر لأبو مصعب السوري. في حين نجد أن أوليفيه روا، على الرغم من أنه لم ينقطع أيضاً عن النقاشات الإعلامية وحتى الصحافية في هذا الجانب، فإنه من الملاحظ مثلاً في كتابه الأخير «الجهاد والموت» الصادر بالفرنسية سنة 2016، والمُترجم للعربية عن دار الساقي، صالح الأشمر. أن روا بدا مشغولاً من خلال عينة مؤلفة من 100 جهادي فرنسي، بالبحث عن تفسيرات ومخيلة سوسيولوجية، تكون بديلة عن بعض السرديات التي سعت إلى فهم ظاهرة «البداوة الجهادية» التي أخذ يمارسها بعض الفرنسيين في مدن سوريا والعراق. في هذا الجانب يمكن أن نشير إلى ثلاث سرديات أساسية: الأولى هي لفرانسوا بورغا (الإرث الاستعماري والتدخلات الغربية)، الثانية هي لجيل كيبل (إسلام الضواحي)، وأما الثالثة فهي (سردية الجنون) التي أطلقها بعض علماء النفس من أمثال فتحي بن سلامة.

ويرى روا في ما يتعلق بالسردية الأولى، أن الباحث الفرنسي فرانسوا بورغا غالباً ما يفترض أن المتطرفين تحفّزهم معاناة المسلمين، والمستعمَرين سابقاً، أو ضحايا العنصرية، وعمليات القصف، الاستشراق.. الخ وأن التمرد هو تمرد أولاد الضحايا. في حين تبيّن لنا البيانات العائلية لهؤلاء المتطرفين أن الصلة بينهم وبين الضحايا صلة خيالية أكثر منها واقعية، فالذين ينفّذون التفجيرات في أوروبا ليسوا سكان قطاع غزة، ولا الليبيين، ولا الأفغان، ولا هم بالضرورة الأكثر فقراً، ولا الأكثر مهانةً، ولا الأقل اندماجاً. ويدل وجود 25٪ من المتحولين إلى الديانة الإسلامية في صفوف الجهاديين على أن الصلة بين المتطرفين وشعبهم هي أيضاً من قبيل الخيال الماركسي الذي يغلّف رؤية بورغا.

وفي ما يتعلق بسردية «استياء شبان الضاحية» لجيل كيبل، التي تقوم على فكرة أن هناك استمرارية بين: حرب الجزائر، ومسيرة أبناء المهاجرين عام 1983، وهجمات عام 1995، واضطرابات عام 2005، والتضامن مع فلسطين، وارتداء الحجاب، وانتشار استهلاك الطعام الحلال والإرهاب الحالي، الذي يبدو على نحو ما ختام سيرورة لفشل/رفض الاندماج. فإن هذه الاستمرارية ـ وفقاً لروا- لا حقيقة لها سوى التسمية الغامضة «شبان من أصل مسلم» ينتمون إلى عرقية واحدة. ولعل ما يدحض سردية الاستمرارية بين أشكال التمرد المتعددة، هو أن المجموعات الإرهابية ليست اليوم سوى مجموعات منغلقة على نفسها، تتناسخ وتتجاوب في ما بينها، بدون أن تغرف من الخزان الاجتماعي المحيط، الذي هو بمثابة حاضنة لدى كيبل. فبنية المجموعات تبقى هي نفسها: مجموعة من الرفاق، والأخوة والأخوات، الذين يمكن أن يكونوا أصدقاء منذ الطفولة أو تلاقوا في السجن، وأحياناً في معسكر تدريب. هنا نجد أن روا يشير إلى ذات الخلاصة التي توصل إليها الأنثربولوجي الفرنسي سكوت أتران في كتابه «الحديث إلى العدو»، التي تقول إن علاقات الصداقة والقرابة هي ما بات يحرك الجهاد اليوم. من جهة أخرى لا يأتي المتطرفون من فضاءات سلفية (وهذه الفكرة التي لطالما تطرّق لها كيبل في سياق نقده لروا)؛ فقد كان الأخوان عبد السلام (منفذي شارلي إيبدو) يديران حانة في حي يقدمونه إلينا على أنه ذو طابع سلفي، أي أنه محظور نظرياً على شاربي الكحول والفتيات غير المحجبات، لكن هذا المثال يبين أن حقيقة الأحياء ذائعة الصيت أكثر تعقيداً مما يقال.

من ناحية أخرى، يرى صاحب كتاب «الجهل المقدس» أن علماء النفس باتوا منذ الهجوم على «شارلي إيبدو»، يتدخّلون أكثر فأكثر في سوق استئصال التطرف، وهم في الغالب يؤكدون عموماً على أهمية «الجرح النرجسي» للإرهابيين ودور الاستياء والشعور بانخفاض المنزلة. صحيح أن بعض الإرهابيين من أمثال محمد الحويج بوهلال، قاتل نيس كان يعاني